علماء العرب 8

الفارابى

أبو الفلسفة الإسلامية

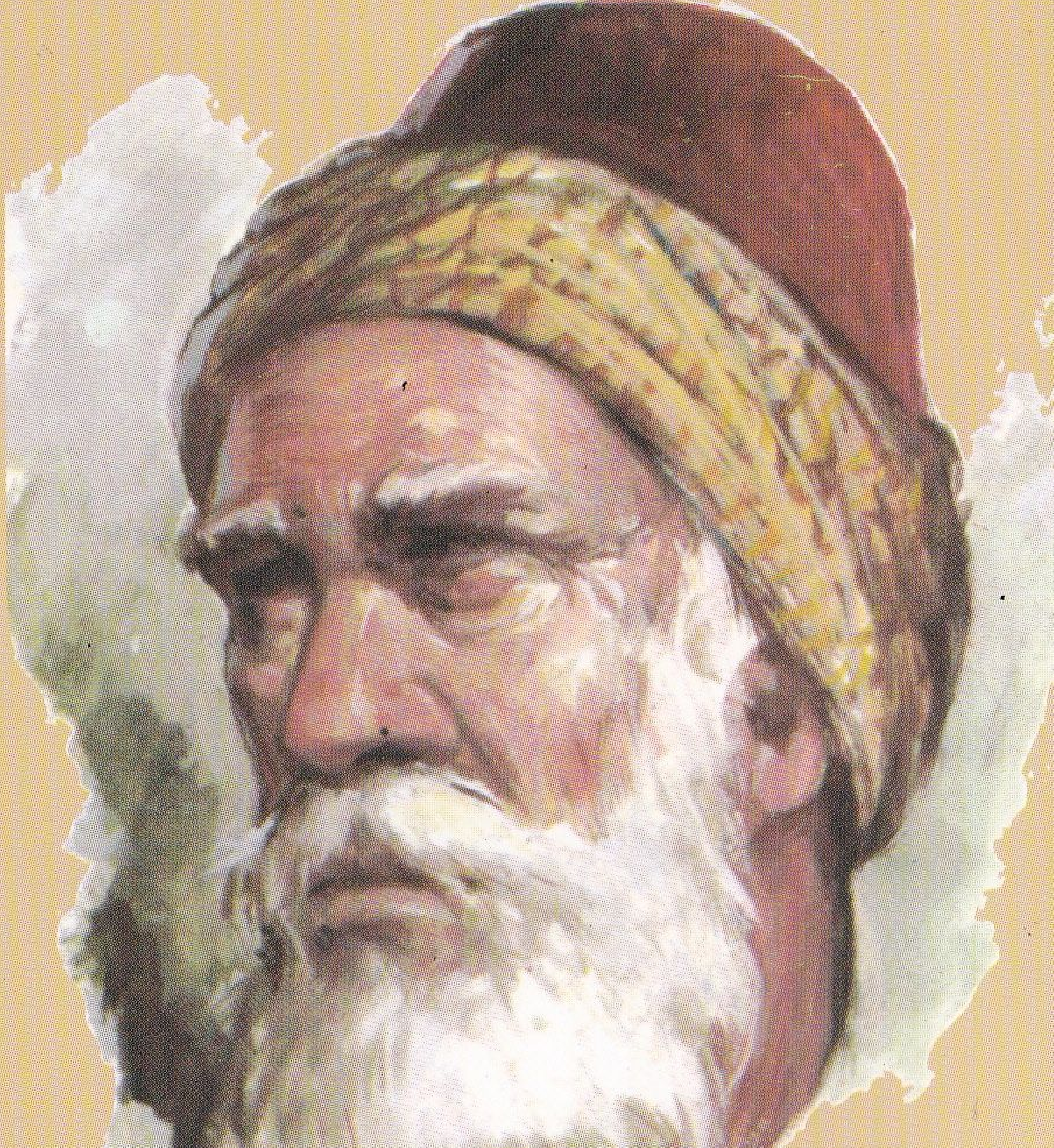

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

عاصمة الثقافة العربية
منشورات ANEP

علماء العرب

الفارابى

أبو الفلسفة الإسلامية

عاصمة الثقافة العربية

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب : الفارابى
سلسلة علماء العرب
المؤلف : سليمان فياض
تصميم الغلاف : بديعة ميدات
الناشر : منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر
الهاتف/فاكس : 213 21 23 89 61 / 213 21 23 64 85
الهاتف : 213 21 23 68 32 / 213 21 23 89 16
فاكس : 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-272-6

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

صَبِيّ فِي مَزرعة

في قريةِ «وسيج» بولايةِ «فَاراب»، فيما وراءَ نَهريْ «سيحون» و«جيحون»، (بجمهورية تركستَان الآن). وُلد «محمدُ بنُ محمدٍ بنُ طَرْخَان».

كانَ أبُوه قائدًا صغيرًا، مِن قُوّاد الجُيوشِ السّامانيّة، وكانَ تركيّ المُوطن، فارسِيّ الأصلِ، عربيّ الثّقافة، يتحدّث

بثلاثِ لُغاتٍ، هي الفارسيّةُ لغةُ أجدادِه، والتّركيةُ لغةُ مَوْطنِه في آسيا الوُسْطى، والعَربيّةُ لغةُ ثقافته ودينِه، منذ أنْ دَخَلَ أبُوه «طَرْخان» في دينِ الإسلام، ونَزَح بأهلِه إلى إقليمِ «فاراب».

وكانَ إقليمُ «فارَاب» خَصيبَ الأراضي، عامرًا بالبساتينِ والمَزارعِ، تُغطّى أراضيهِ أشجارُ الفَواكه والبُقولِ والخضراواتِ، وَكانَ السُّكّان من الأتراكِ، ومن المستوْطنينَ الفرسِ والعَربِ، الذين حمَلَتهم الجُيوش الإسلاميّة أثناءَ فتحِها لهذا الإقليمِ، أكثرَ من مرّة، والدُّعاةِ إلى دينِ الإسلامِ، والتُّجارِ الوافدينَ من شرقِ العالَمِ الإسلاميّ وغربِه، أهلَ مَنعةٍ وبأسٍ، يحملُون السِّلاحَ أبَدًا، فيما هُمْ يزرعُون ويُمارسُون الحِرَفَ والتِّجارات، وينضمُّون إلى الجُيوشِ المُحاربة، ويحرصُون في نفسِ الوَقتِ، على دراستِهِم لِدينِهم، وللغة هذا الدِّين، وتعليم أولادِهم علومَ الدُّنيا، مع عُلومِ الدِّين.

فِي هذَا الجوِّ، وفي تلكَ البلادِ، حديثةِ العَهدِ بالإسلامِ، نَشأَ «محمدُ بنُ محمد بنِ طَرْخان» في مَزْرَعةٍ يملكُها أبوه عن جدّه، يُشرِفُ مع أبنائِه، على زراعتِها بالفواكِهِ والحُبوبِ والخُضراواتِ،

ويلبّي داعيَ الجِهادِ، كقائدٍ بينَ قُوّادِ الجُيُوشِ المُسْلمةِ، كُلّما دَعاهُ إلى ذلكَ داعٍ.

في مسجدِ قريةِ «وسيج»، ومساجدِ مَدينةِ «فَاراب»، حَفظَ الابنُ «محمد» القرآنَ الكريم، ودرس الفِقْهَ، والحديثَ، والتّفسيرَ، وأتقنَ اللُّغتَيْنِ التُّركيّة والفارسيّة، وعرَفَ كَيفَ يَقرأُ العَربيّةَ، وكيفَ يكتُبها، لكنّه لم يتبحّرْ في نحوِها وصرفِها، ويتقنْها إتقانَ بنيِها من العلماءِ.

المتوحّد

كَانَ الابنُ «محمد» ذكيَّ النَّفسِ، هادِىءَ الطَّبعِ، ساكِنًا، لا تعنيه أمورُ الدُّنيا وَالجسدَ، فرُوحه يحلّق حيثُ يحلِّق عَقلُه، وعقلُه يَتسامَى إلى حيثُ يَسمُو روحُه. فلم يعبَأْ في طفولتِه، وصباهِ وشبابِه بمسْكن، ولا بمشْرَب، ولا بملبَس. يُؤثِرُ البَسيطَ من ثيابِ مواطنيه من التُّرك، والمفيدَ من أبْسَطِ أنواعِ الغذاءِ، ويُؤثِرُ الوحدةَ، والتَّأمُّلَ والتَّفكيرَ، في أمورِ الدُّنيا والدِّين، وحياةَ النَّاسِ من المَحكومين والحُكّام، من المزارِعين والصُّنّاعِ والمحاربينَ والقُوّادِ والسّاسة، ومعارفِ

السَّابقين والمُعاصرين، تَفوّه بها ألسِنةُ النَّاسِ، وتتحدَّثُ بها صفحاتُ الكُتُبِ.

وكانت مجالِسُه المنفردة، مع نفسِه، وفِكرِه، وتأمُّلاته، وخواطرِه، عندَ شطآن المياهِ الجارية، والحدائقِ الغنّاء، والزُّهورِ المُلوَّنة، في ظِلالِ أشجارٍ خَضراءَ، وارفةِ الظِّلال.

وكَثيراً ما كانَ «محمد» الابن، يخرجُ من عُزلتِه، ليمارسَ مع إخوته الزِّراعةَ في مزرعةِ أبيه، يحرثُ، ويَسْقي، ويهذِّبُ الأغصانَ، ويحرِّرُ الأشجارَ من فروعِها وأوراقِها اليابِسة، ويخلِّصَ التُّربةَ من الأعشابِ الضّارّة. وفي اللَّيلِ كانَ يسهَرُ في خُصٍّ (كُوخ) من الأغصانِ، على ضَوْءِ قِنديل، يقرأُ ويكتبُ، في اللَّيالي الحارّةِ والبارِدة، ويحرسُ بُستانَ الفواكهِ، في مواسمِ الإثمارِ. ونادراً ما كانَ يأوِي إلى بَيْتِ أهلِه وذويه، ألاّ في نهاراتِ وليالي المواسمِ والأعياد القوميّةِ والدّينيّةِ. وعندئذ كانَ يؤثرُ أن يكونَ مع الأهلِ وبَيْنَ النّاسِ.

لاَ تُشفق عليّ

جلسَ إليه أبُوه «محمد» يومًا، وقالَ له:

– كبرتَ يا ولدِي، وقاربْتَ الثّلاثِين، وأنتَ تؤثِر حَياةَ السّلامِ، على حياةِ الحربِ، وحياةَ الخَلاءِ على حياةِ النّاسِ، ولستُ أدعُوك لتكونَ جنديًا، أو فارِسًا، وإنّمَا أدعُوكَ للخُروجِ من الوَحدَةِ الدّائِمة التي تَحياها، وتَتزوَّج.

فقالَ له ولدُه «محمد»:

– يا أَبت، نذرتُ نفسِي للعلمِ، وحياةِ العُلماءِ. والزَّواجُ، والإنجابُ مَشْغَلَةٌ لطالبِ علمٍ مِثلِي، عَن حياةِ العلمِ والعُلماءِ. وإنّي لأوثِرُ أن تكونَ حالِي على مَا هِيَ عليه الآن، أقرأُ في كُتبِ الأوّلين والحاضِرينَ، وفي كتابِ الطَّبيعةِ المَفتُوح.

ولم يخفِ الأبُ إعجابَه بولدِه، فقد صارَ الآنَ رجُلاً يعيشُ حياتَه على منْوَالِه وطريقَتِه، يُمارِسُ، بطلبِه العلم، بطولةً لا تقلُّ شأْنًا عن بُطولةِ المُجاهدِين، والزَّارعِين، والصُّنّاع، لتعْميرِ أرضِ اللّه، ونشْرِ الخيرِ فيها لكافّةِ الأحياءِ. ولم يزدْ أبُوه على أن قالَ له:

– كَما تَشاءُ يا بُنَيّ. كَما تَشاء. يَسّرك اللّه للعِلم. ويَسّرَ العِلمَ لك.

الوَديعة

في «فَاراب»، كانَ يَعيشُ عالِمٌ مَجهولٌ من العُلماءِ، وكانت لديه كتبٌ كَثيرةٌ، في المَنْطق، والفلسفةِ، والموسيقَى، والرِّيَاضِيَّات، بعضُها نسخَها على الورقِ بيَدِه، وبعضُها اشترَاها مَنسُوخة من الورّاقين (بائِعي الكتب) خِلالَ أَسفارِه شَرقًا وغربًا. وأرادَ هذا العالِمُ السَّفَرَ من جَديد، وخشِيَ على كُتُبِه من مكتبَتِه من التَّبَدُّدِ والضَّياعِ، فحملَها إلى العالِمِ الشّابِّ «محمد»، وقال له:

– يا بُنيّ، أنتَ خَيْرُ مَن يعرِفُ قيمةَ هذهِ الكتب في «فاراب»، وبعضُها في عُلومٍ لا علمَ لكَ بها. وإنّي على وَشْك السَّفرِ لأمورٍ من أُمورِ دُنياي، وقَد فتَّشْتُ حولِي عن رجُلٍ أَستودِعُه هذه الكتبَ أمانةً عِنده، إلى أن أعودَ من سِفري. فلم أجِدْ رَجُلاً أَمينًا، مُحبًّا للعلمِ، وللكُتُبِ سِواكَ. ولكَ أن تنتفعَ بِها مُدّةَ سَفَرِي، فإن عُدْتُ استرجعتُها منك، وان لم أعُدْ، فهِيَ لكَ، بعْدَ عشرِ سنَوات، فَلا أدري أيْنَ ستستَقرُّ بي الدّار، ويَطيبُ لِي المُقَامُ، ولا مَتَى يوافيني الأجلُ.

وفرِحَ «محمد» بكتُبِ العالمِ المسَافر. وعكفَ على الكتبِ بفرحٍ يقرأُ فيها ويتعلَّم، يُعَلِم نفسَه بنفسِه. وكانت كلّها كتبًا في الفلسفةِ والمنطقِ، والرِّياضيّات، والمُوسيقى، بعضُها مؤلّفٌ بأقلامِ عُلماءٍ مُسلمين من شَتّى الجنسِيّات، وبعضُها مترجَمٌ عن اليونانيّة خاصَّةً. وكانت بينَها كتبٌ لأرسْطو وأفلاطُون في الفَلْسفة والمنطِق. وكادَت نفْسُ العالمِ الصَّغيرِ «محمد» تَطيرُ من الفَرَح، مثل شعاعٍ يجُوب آفاقَ الكَون.

العَالِم الصّغير

مَرَّ عامٌ إثرَ عامٍ، حتَّى مَضَتْ السَّنوات العشر، ولم يعُدْ عالِمُ «فاراب» صاحبُ الكُتب من غَيبَتِه. وكانَ «محمد» قد قرأَ كُتُبه مِرارًا وتَكرارًا، حتّى حَفظِها.

قَرَأَ العالم الصّغير «محمد» كِتابَ «النفس» لأرسطو. وكَتَب عليه بخطِّه «قرأتُ هذا الكتابَ مائةَ مرّة». وقرأَ كِتاب «السّماع الطّبيعي» لأرسطو، وكتبَ عليه: «قرأتُ هذا الكتاب أربعينَ مرّة».وكانَ يبذُل جُهْدًا مُجهدا لتحصيلِ العلمِ، والغوْصِ في أعماقِ معارفِه في صَبرٍ وإخلاصٍ، ولذلك

تعدّدت قراءتُه في الكتابِ الواحدِ، ففِي كلّ مرّة يكتشِف جَديدًا من المعارِف والحَقائِق.

واستوعَبَ العالِمُ الصَّغير، خلالَ هذهِ السَّنوات العشْر، ما قدمتْه له هذه الكتبُ التي بين يديْه، فأصبحَ قادِرًا على نَقدِها، والإضافةِ إليها، وتَصحيحِ ما يعنّ له تَصحيحُه من الأفكارِ، وشرْحِ ما يراهُ غامِضًا من الحقائِق والمقُولات العقليّة والعلِميّة، ليفيدَ بِه من يأتِي بعدَه من العُلماء، الصغّارِ منهم والكِبار.

وبينَ كافّةِ النَّاسِ، العادِيِّينَ منهم، والعُلماء، اشتُهِرَ العالِمِ الصَّغير، «محمد»، في إقليم «فاراب»، بلقبِ «الفارابي»: «محمد بن محمد بن طرخان الفارابي»، زَهْوًا بِه، وإعلاءً لشأنِه، فوفَدَ عليه، للتَّلمذةِ على يَديْه، شَبابٌ يَطلبُ العِلمَ، وعلماءُ لهم في العلمِ شَأوٌ وباع، ولم يعُد الفارَابي وَحيدًا في نَهارات أيامِه، فلم يكُن يجدُ سَبيلاً إلى الوحْدة، والخلُوّ إلى نفسِه وكتبِه وأفكارِه إلاّ في اللَّيلِ علَى ضَوءِ قنديل أو مشكاة.

مُسافر إلى الأبد

وتاقَت نَفسُ «أبى نصرِ الفارابي» للتَّرحَال والأسفار، طَلَبًا للمعرِفة، ورُؤيةِ الدُّنيا، ولِقاءِ العُلماءِ، والحُصولِ على الكُتبِ يَشتَريها مَنسوخةً، أو يستعيرُها، أو يؤجِّرها، لينسَخَها بيدِهِ وقلمِه. وزَادُه لَحمٌ مقدَّد، وجُبْن مُجفَّف، وتمْر، وزَيتُون، وبِضْعة دراهمَ ودَنانير، وأكبرُ حَمْلِه معهُ، على بَغلِه،أو جَملِه، هو كُتُبه التي لا تُفارِقُه، حيثُما رَحَلَ أو نَزَل.

جابَ «أبو نصر الفارابي» أَرجاءَ آسيا الوسطى (جنوب الاتحاد السوفييتي الآن)، وجابَ بلادَ فارِس (إيران) وخرسَان (أفغانستان). وقَد تَرَك وراءَه لأخوتِه وأهلِه وذَويه ما وَرِثَه من ضَيْعةِ أبيه. فهو من رُوحه، وبعلِمه، في غِنًى وثروَة، دُونَها كلُّ ثَروةٍ وجاهٍ. وأينما نَزَلَ في بَلد، تَركَ وراءَه نُسخةً من كُتُبِه لِعالم، أو جانبًا من معارِفِه لطالبِ عِلمٍ، كانَ قَد سَمِعَ بِه، واشتاقَ إلى لُقْياه.

فِي مَدينة السّندباد

وكانَ «أبو نصر الفارابي» قَد بَلَغ من العمرِ خَمسينَ سنةً، حينَ دخلَ بغداد عامَ ثلاثمائة وعشرةٍ هجريّة، تسعمائة واثنينِ وعشرينَ ميلاديّة بعد طُولِ تَرْحَال.

وَوَجَدَ الفارابي أهلَ بغداد مَشْغُولين بالحديث مُنذُ عامٍ عَن وفاةِ الصّوفِيِّ الشّاعرِ المتفلسفِ «الحسين بن منصور الحلاّج» شَهيداً، بَعد أنْ أمَرَ الخَليفةُ المقتدر بضربِه ألفَ سُوط، مُتَّهمًا له بالزَّندَقَة في شِعرِه وفلسفتِه، وكانَ «حامد ابنُ العبّاس» وزيرُ المقتدر يكرهُه، فَجَعَلَ من امرأته عَينًا علَيه، واستشهدَ بها ضدَّ زَوجِها، وقد أغرَاها بالمالِ، في مَجلسٍ ضَمَّ عدداً من القُضَاة، وأُحرقت جثّتُه، وأُلقِيَ برمادِها في نهرِ دِجْلة.

وَفي اليومِ الأوّل، لدخولِ «أبي نصر الفارابي» مدينة بغداد، قُدّر لهُ أن يشهَد ويرَى نِزاعًا بَينَ أهلِ السُنّة في الفِقْه الإسلاميّ، فقد كانَ أتباعُ مَذهبِ الإمامِ «أحمد ابنِ حنبل» ثائرين، فقد مَات الإمام المفسّر «محمد ابن جريرِ الطّبَريّ» أوّل وأكبر مفسّر لكتابِ اللّه، ورغب أهلُه وتَلاميذُه في دفنِه، فأبَى عليهم الحنابلة دفنَه في مقابرِ المسلمين، لأنّ الطّبَريّ المفسّر كَتَبَ يومًا كِتابًا. تَحدّث، فيه

عن «اختلاف الفقهاء»، ولم يذكُرْ فيه اسمَ إمامِهم «أحمد ابنُ حنبل». كان الموقفُ أمامَه مَأساةً ومَلهاةً، تُبكِي وتُضحِك في وقتٍ واحدٍ، فأدرَك الفارابي أيَّ حالٍ صارتْ إليهِ بغداد.

جُند مُرتَزِقة

كَانت بغدادُ، مَقَرًّا للخِلافة العَبّاسِيّة ما تَزَال، ورأى الفارابي مدينةً عجيبة، هي خليطٌ من العرَب والفرسِ والمَغاربةِ والأتراك. ورأى الأتراكُ، من مواطنيه في وسطِ آسيا، يسيطرُون على كلِّ شيءٍ في الدَّولة، بسيطرتِهم على الجيشِ، منذُ خمسٍ وثمانين سنةً. وقد بلغَ الخُلفاءُ العباسيّون من الضّعف حدًّا جَعلهُم يحاولُون مقاومَةَ شُرُورِ الأتراكِ، بالاستعانةِ بجنودٍ مِن المغاربة، والأكرادِ، والدّيْلم، فزادُوا بدورِهم تدخلاً في أُمورِ الحُكمِ، وعبثًا وفسادًا بينَ النّاس.

وتوجّه الفارابي إلى المسجدِ، وصلّى الظُّهرَ مع الجمَاعة، وجلَس يَدعُو مُستعيناً باللّه على فهمِ ما يَحدُث حَولَه. وخرَج الفارابي من المسجد، باحثًا عن بيتٍ يأويه، على أنْ يكونَ نائيًا عن بغداد، وقَريبًا منها، يطلُّ على نَهرِ دِجلة.. ووجدَ ضالّتَه، فاستأجرَ البيتَ إلى حين،

وآوى إليه بغلَته، وأنزل به كُتبه، وغادرَه عائدًا إلى بغداد، يتجوّل في أنحائِها، ويَرى من معالِمها وأحيائِها ما لم ترَه عيناه.

وراعَ الفارابي ما يشاهدُه من مظاهرِ العُمران في أرجاءِ بَغداد: دورٌ وقُصورٌ فَخمةٌ واسعةُ الأرجاء، بها حدائقُ غنّاء، وتنطِقُ جُدرانها بفُنونِ الهَندسةِ الشَّرقيّة. وكانت الدُورُ والقُصورُ مثل دُورِ وقُصورِ الفُرسِ التي رآهَا في طَريقِه إلى بغداد، مبنية بالآجُر (الطّوب المحرَّق)، ومغطاة بالكِلْس (الملاط)، ولها قِباب مَرفُوعة هُنا وهُناك.

خوف السّائل والمُجيب

وجَلَسَ «الفارابي» في بستانٍ من البَساتينِ العامّةِ في بغداد، تحتَ شَجرةٍ ظَليلة، بِجانبِ نافورةٍ من نوافيرِ المِياه. ولاحَظَ أنَ أكثرَ النّاسِ في وقتِ القَيلولة قَد آوَوْا إلى بيوتِهم. وكانَ اليومُ أيّامِ الخريف. واقتربَ مِنه بستانِيّ، وحيّاه وجلَسَ، وقالَ له دُونَ استئذانٍ:

– أرَى أنّكَ غريبٌ. تُدهشُك بغداد. انظُرْ. لو قُدِّر لكَ أنْ تدخُلَ قَصرًا من هذهِ القُصورِ الكَرْخ، أو على الضِّفّة الأُخرى لدِجلة، في الرّصَافة، فسوفَ تَرَى هذهِ القِبابَ مَرفوعةً علَى عُمُدٍ دَقِيقة،

فتظهرُ القِبابُ لعينيْكَ كأنَّها معلَقَةٌ في الفَضاء. ولسوفَ تَرَى، في أَرجاءِ هذهِ القُصورِ، أَرْوِقةً يجتمعُ فيها غِلمانُ القَصرِ القَصرِ منَ الخُدّام، وبقدرِ عددِ هَؤُلاءِ الغلمان في الرِّواقِ، يُسمّى الرُّواق. فَرُواق اسمُه: الأربعينِيِّب ورواقٌ اسمُه «السّتّينِيّ» أو «السَّبعينِيّ».

وجامَلَ «الفارابِي» البستاني، فأبدَى لَهُ دَهشَتَه ممّا يَسْمَع، فَضَحِك البستاني وقال:

– فكَيْف بِكَ لو دَخَلْت قَصرًا من هذه القُصورِ، ورَأَيتَ مَا فيها من فَخامةٍ وتَرَفٍ وبذَخٍ، وشاهدتَ مجالسَ الغناءِ والطَّرَب، وبها الشُّعراءُ والمُغنّون، والأُدباءُ والموسيقيّون، والجَواري المُغَنّيات، والجَوارِي السَّميرات، وأَهلُ الفُكاهةِ والظَّرَف!!

وشَعَرَ الفارابي بالضّيق، فأفلَت منه القَوْل:

– أَإلى هذَا الحدِّ ينغمسُ أَهلُ بغدادَ في اللَّهوِ؟ متَى إذنْ يَعْنَوْنَ بِشُؤُونِ الدَّولةِ، ورُقيِّ الحَياةِ والنَّاسِ؟!

ولَعلَّ الفارابي خَشِيَ مَغبّةَ سؤاله، ولَعلَّ البستاني خَشِيَ عاقبَةَ الجَواب، لَو أَجابَ، فَقَد نَهَضَ كلاهُما، وانصرَفَ، مُبتَعِدًا عَن الآخر. وكانَ بعضُ المارّة، من الطَّبَقةِ الرّاقية، قَد خَرَجُوا

للنُّزهة، أو للمَسجدِ، مغادرين قُصورَهم، كانُوا يَرتَدُون سَراويلَ فَضْفاضَة، وقمصانًا، ودرَّعات(مثل الجاكيت الطَّويل)، وسُتْرَات، وقفاطِينَ، وأقبيةً، وقُلَنسوات.

تَلميذ في الخَمسين

أدّى الفارابي صلاةَ العصرِ في المسجدِ الكَبيرِ، وواصلَ سَيرَه في أحياءِ الشَّعبِ في بغداد، بَعيدًا عَن قُصورِ الأغنياءِ في الكَرخ والرّصَافة، فرأى متاجرَ للسِّلع، ومحالّ للصِّناعات اليَدوية، صِناعات: السجّاد، والآنية، والنُحاس، والنَّسيجِ، والمعادنِ. ولفتَ نظرَهُ في هذهِ الأحياءِ، أنَّ النّاسَ يَكتَفُون من الثِّيابِ بإزَار، وقَميصٍ، ودرّاعة، وسُترة طَويلة، ومِنْطقةٍ (حزام).

كَانت الشَّمسُ تَغرُب في الأفُقِ، وكانَ الفارابي قَد جاءَ إلى بغداد، رَاجيًا أن يَلْقى إمامَ علماءِ المنطقِ في زَمانِه «أبو بشر مَتّى بنُ يُونس»، وكانَ عُلماءُ «شيراز» قد قالُوا لَه إن بوسْعِه لقاءَه، إثرَ صَلاةِ المَغرِب في المسجدِ الكَبيرِ ببغداد، فتوجَّهَ الفارابي مُسرِعًا إلى المسجدِ ليُصلّي صلاةَ المغرِب، ويلقَى «أبَا بِشر».

ودلَّ النّاسُ أبَا نَصر على أبي بِشر، فاقتَرب منه، وحيّاه، وجلسَ إليه، وقدّم له نفسَه، وحدَّثه عن غايتِه من لِقائِه.

وتأمَّلَ أبُو بِشر مَلِيًّا في أبِي نَصر، بَدا لَهُ طَويلَ القامَةِ، عَريضَ المَنْكِبَيْنِ قَوِيَّ البنية، وقد أبيَضَّ شَعرُ فوديْه على جانِبَيْ أُذُنَيْه، ورأى يَديْه خشنتين، كمن يخدُم نفسَه بنفسِه، أو يُمارِسُ أعمالَ الفِلاحَةِ أو البَسْتَنة. وأعطاه وَجهُ «أبى نصر» شُعورًا بالأمن والهُدوءِ، وصَفاءِ النَّفسِ. ونَظَرَ «أبُو بِشر» في عينَي الغَريب، فرآهُما تَشعانِ ذَكاءً ووداعةً في آنٍ واحدٍ.

قالَ لَه أبُو بِشر مُداعبًا:

– يا أبَا نَصر، أبعْدَ كُلِّ هذا العُمرِ، تَأتِي لتدرُسَ عُلومَ المنطقِ، والفلسفةِ والرِّياضيّات؟!

فقالَ لَه الفارابي، وهو يَبتَسِم:

– يا سيِّدي أبَا بِشر. النابغةُ الذبياني نبغَ في الشِّعرِ بعدَ الأربعين. والعلمُ يُطلَبُ من المَهدِ إلى اللَّحدِ. وإنّ لِي في العلمِ لَشأنًا وقد تركتُ ورائي شُروحًا في المَنْطِقِ والفلسفة. ثم جِئتُ إليك، فوفقَ كُلِّ ذي علمٍ عَليم.

أَتقَنَ لُغةَ العَرب

ارتاحتْ نَفْسُ أبِى بشر للفارابي. وسألَه عن مَدَى إتقانِه لِلُّغةِ العربيّة، فقالَ لَه أبُو نَصر:

– أعرِفُ منها ما يكفِي لأقرأَ بها وأَكتُب، لكنّني لا أُحسِنُ صَرْفَها ونَحْوَها، مثلَ إتقاني لنحوِ الفارسيّةِ والتُّركيّة، وتَصريفِ أَبْنِيَتِهما.

فقال لَه أَبُو بشر:

– لا بُدَّ لكَ مَعِي من إتقانِ نَحوِ العَربيّة وصَرْفِها، فبِها سَتَقرأُ مَعِي، وتَكتُب لنفسكَ وللنَّاس. ولهذا سأصحبُكَ غدًا إلى مَن يُعلِّمُك العربِيّةَ نَحوًا وصَرْفًا، وإنّي لأَرَى أَنَّكَ سَتكونُ فِيهما من النّابِهين.

حارِس البَساتين

وصحِبَ أبُو بِشر ضَيفَه الفارابِيَّ مَعَه، إثرَ صَلاةِ العِشاءِ، إلى بَيتِه، وتَناولاَ عشاءَهما مَعًا، ثم سَأَلَه:

– أَمَعَكَ مَالٌ تَعيشُ منه، أم نَطلبُ لَكَ رَاتبًا من بيت الحكمة، أو بيتِ المَالِ، أو مِن أَحَدِ الأُمراءِ، مِمَّن يرعَوْنَ العلمَ والعُلماءِ؟

فقالَ لَه الفارابي:

- لا تحملْ همَّ عَيشي يا سيّدي، فَمعي بَعضُ الدَّنانير، وأَنا أُوثرُ العَمَلَ على أَخذِ أيِّ عطاءٍ أو هِبَة. وقَد اختَرتُ لنفسِي، مُنذُ سِنين طَويلةٍ، عَمَلاً لايعوقُني عَن التَّفكيرِ، والدَّرسِ، وطَلَبِ العِلمِ، في لَيلٍ أَو نَهارٍ، وهُوَ: حِراسةُ البَساتين.

فَصاحَ أبُو بَشر بِدهشةٍ:

- أتعمَلُ ناطُوراً؟ حارِساً لبُستان؟ كَم تَظُنّ أَنّ صاحِبَ البُستان سَيُعطِيك أجراً لحراسَتِك؟

فقالَ لَه الفارابي

– أربعةُ دَراهم، هِيَ حَسبي لقوتِ شَهري، وعَلَفِ بَغلَتي، ويبقَى منها ما أشتَري بِهِ أوراقاً وأحباراً، لأنسخَ ما أحتاجُه من كُتُبٍ، فنسْخُ الكتابِ بيدِي، يَزيدُني فهماً لَه، ولأكتُبَ ما يخطُر لِي من أفكارٍ. والبُستانُ يا سيِّدي لا يحتاجُ إلى حِراسةٍ إلاّ في اللَّيلِ، فأظلُّ لَيلي ساهِراً على ضَوْءِ قنديل، لا تَغفُو لِي عينٌ، إلى أن تُشرِقَ الشَّمسُ، فأغفُو ساعاتٍ ثَلاَث، ثم أسعَى لأدبّر طَعامي، ولأَلْقَى العُلماء.

وجدَ أبو بشر نفسَه أمامَ طرازٍ جَديدٍ وفَريد من العلماء، آثرَ حياةَ العُزوبة على حياةِ الزَّواجِ والوَلَدِ، وأفرَغَ قَلبَه وعقلَه

للمَعرفة، وحرَّرَ روحَه من شَهَواتِ المالِ والطَّعامِ، واختارَ لنفسِهِ عملاً لَم يختَرْهُ لنفسِهِ عالِمٌ من قَبلُ، وهو: حِراسةُ البَساتين.

وضَحِكَ أبُو بشر، وشَارَكه أبُو نَصر ضحكَه. كانَا رجلَيْن متقاربَيْن في العِلمِ، أَحَدُهما أستاذٌ، والآخَرُ تِلميذٌ. وقضيَا جانبًا من اللَّيلِ يَسْمُران، وأبُو نصر يحدّث مُضيفَه عَن مَوطنِه، وأبيه، وأهلِه، وحَياتِهِ في «فاراب»، ورِحْلاتِه في العالَمِ الإسلامِيّ، ومن لقيَهم من العُلماءِ.

إنّي بِكَ لَسَعِيد

عثَر الفارَابي، بمساعدةِ أُستاذِه وصَديقِه «أبى بشر»، على بستانٍ على شاطِىءِ نهرِ دِجلة، به بَيتٌ صغيرٌ من غُرفتَيْن، وحَوْش بِه سقيفَة للبَغلِ وعَمِلَ «الفارابي» في البُستان ناطوراً، يحرسُه في اللَّيلِ.

وصَحِبَه أبو بشر للقاءِ عالمِ النَّحوِ والصَّرفِ «أبى بكرٍ السَّرّاج»، وكان بدوْرِه يمارِسُ عمَلَ السُّروج لِلخيلِ وللبِغالِ والحَمير، مثل كَثيرينَ من العُلماءِ في هذَا الزَّمانِ، الذين يكسَبُون رزقَهم من الحِرَف، ويَحيَوْن بعقولِهم أحراراً، غيرَ خاضعِين لأحدٍ من النّاسِ.

وقرأ «الفارابي» على يديْ العالِمِ «أبي بكر» مُعجم «العين» للخليل بن أحمد، وكانَ أوّلَ معجمٍ وُضِعَ للُغةٍ من لُغاتِ الأرضِ. وقرأَ عليه كتابَ «الكتاب» لسيبويه في النّحوِ، وقرأ كُتُبًا أُخرى، في البَلاغةِ، والصَّرفِ. واستغرقَه درسُهما، واتقانُهما عامَيْن من حَياتِه في بغداد، لم ينقطِع فيهما عن دراسةِ «المنطقِ» و«الفلسفة»، في نفسِ الوقتِ، على يديْ: «أبي بشر متّى بنِ يونس».

وبَلَغ «أبو نصر»، من إتقانه للعربيّة وعُلومها، حَدًّا راحَ يضعُ به مُصطَلَحاتٍ عربيّة، تُقابِلُ المصطلحاتِ اليُونانِيّة، والفارسيّة، لعلومِ المنطقِ والفلسفة، والرِّياضيّات، والموسيقى، وهو لا يعرفُ من اليُونانيّة أكثرَ ممّا تَدُلُّ عليه حُدودُ التَّعريفات للمصطلحاتِ اليُونانيّة، فيجدُ في العَربيّة، من الإشتقاقاتِ، ما يؤدِّي هذه التَّعريفاتِ بمصطلحاتٍ عربيّة، تُقابِلُ هذه المُصطلحاتِ الفارسيّة أو اليُونانيّة.

وبلغَ أبُو نصر حَدًّا من العلمِ والمنطقِ، والفلسفة، صارَ يُجيبُ بِه عَن مسائلَ في المنطقِ والفلسفة، تُعجِبُ أستاذَه «أبا بشر» فيضحكُ، ويقول لهُ:

إنّي بكَ لَسعيد، وكانَ لابُدَّ أن تَسوقَك الأيّامُ إليّ.

الرّحيل إلى حرّان

وسَعى «أبو نصر» للسّفر إلى «حرّان» (في جَنوب شرقِيّ تركيا الآن)، وكَانت «حرّان»، منذُ فجرِ الدَّولةِ العباسيّة، قبلَ قرنٍ ونصفٍ من الزَّمانِ، ما تزالُ عاصمةً من عواصِمِ الثَّقافةِ الإسلاميّة، في المنطقِ، والفلسفة، والطّبِّ، وفي ترجمةِ المعارفِ اليونانيّة إلى العَربيّة، نَقلاً عَن الكتبِ اليُونانيّة والسّريانيّة. كانتْ غايَتُه من السَّفرِ، أن يَلقَى عالمًا آخرَ بالمنطقِ والفلسفةِ والطّبِّ في «حرّان»، هو: «يُوحنا بن حيلان». وودّعَه أستاذاه: «أبُو بشر»، و«أبو بكر»، إلى حين.

ودخلَ «أبُو نصر» مدينةَ «حرّان»، التي يتحدَّثُ فيها النّاسُ بأربعِ لُغات: العربيّةُ لغةُ الإسلام، واليُونانيّةُ لغةُ الإغريق وفلاسفةِ الإغريق، واللاّتينيّة لُغَةُ الرُّومان، والسّريانيّة اللُّغةُ الأصليّة لأهلِ «حرّان»، قبلَ أن تدخُلَها لغةُ العَربِ، ودينُ الإسلامِ. وكانت السُّريانيّةُ واحدةً من اللُّغاتِ السّاميّة، مثل اللُّغاتِ العربيّةِ والأمهريّةِ والعبريّة. ولقيَهُ «يُوحنا بن حيلان» خيرَ لقاء وقدّمَ له ما لديْه من كتبٍ لينسَخَها لنفسه، وما عندَه من معارف، طَالت بينَهما نهاراتُ الحوارَ النّقاش، وفي اللَّيالي، وطَوالَ عامين، قضاهُما «أبو نصر» في «حرّان»، كانَ «الفارابي» حَريصًا على العَملِ كعادتهِ ناطورًا في حراسةِ بُستانٍ. ثم عادَ إلى بغداد.

مهمَّة علميَّة

وَجد «أبُو نصر» عملَه، وبيتَه الصَّغير في البُستانِ، بانتظارِه، ودخلَ البَيتَ ببغلَتِه، وسارَعَ إلى لِقاءِ صاحِبَيْهِ العالمِيْن: «أبي بشر»، و«أبي بكر» وزَفَّ إليه «أبُو بشر» خبرًا أخافَه وأسعدَه.

كَانت التّرجماتُ الشتّى لكتُبِ اليونانِ، في الفلسفةِ والمنطقِ خاصّةً، متضاربة في المَقولاتِ، والشُّروحِ، والمُصطلَحاتِ. ولقد وَقَعَ اختيارُ القوّامين على كتبِ هذينِ العِلميْنِ في بيتِ الحكمةِ،

على «أبي نصر» ليُزيلَ ما فيهما من اضطرابٍ بين التّرجماتِ، ويضعَ مُصطلحاتٍ عربيّة بدلاً من هذهِ المُصطلحاتِ اليُونانيّة في كتبِ المنطقِ والفلسفةِ المُترجمةِ.

ورفض «أبُو نصر» أن يجعلَ من مناضدِ بيتِ الحكمةِ ساحةً لعملِه. صارَ يأخذُ الكتُبَ معَه إلى بيتِه الصَّغيرِ، ويعملُ ليلَه كلَّه، ليلةً إثرَ ليلة. ولا أحدَ يعلَمُ: كم شهرًا قضاه، أو كم سنةً أنفقَها، في القيامِ بهذَا الدَّوْرِ الشّاقّ، مع كُتُبٍ هي حصادُ عصرٍ بأكمله من التَّرجَماتِ. لكنَّ «أبَا نصر» أدّى مهمَّتَه على خَيرِ وَجهٍ، وصارَ المُختلفُون مُتَّفقين، لا يضيّعُون أوقاتَهم فيما عناهُ أرسطو أو أفلاطون بمصطلحٍ مَا. وأخذَ التَّلاميذُ من طُلاّبِ العلمِ يتوافدُون على «أبي نصر» في بَيتِه الصَّغيرِ في اللَّيلِ، وفي صَحنِ المَسجدِ الكَبيرِ في النَّهارِ، وكانَ أشهرُهم، فيما بعدُ، تلميذُه عالمُ المنطقِ المَشهُور: «يحيى بن عديّ».

بُلوغ الذِّروة

وبَلغ «أبُو نصر» ذِروةَ نضجِه العلميّ، وقد قاربَ السِّتّينَ من عمرِه، وما يَزالُ قَويَّ البنية، صَحيحَ العَافية، قَويَّ النَّظرِ. فأخرج

نفسَه من مَجالِ الدَّرسِ والتَّحصيلِ، والشَّرحِ والإضافةِ، والتَّعليقِ، ووضعِ المُصطلحاتِ، إلى مَجالاتِ التَّأليفِ في المنطقِ والفلسفةِ والموسيقَى والرِّياضيّاتِ. وعلى معرفَتِه الطِّبّيَّة بالطِّبِّ، فلم يَشْغَل نفسَه به، طَبيبًا، ولا عالِمَ طِبٍّ يُؤَلِّفُ فيه.

في المنطقِ، كعَالِم، دَوَّن الفارابي بُحوثَه في أجزاءٍ، كلّها تَدورُ حولَ كِتابِ «الأرجانون» لأرسْطو، بالتَّعليقِ تارةً، وبالتَّلخيصِ تارةً أُخرى. وأَغلَبُ أجزاءِ هذه البُحوثِ لا تَزالُ مَخطوطةً، في أقسامِ المَخطوطاتِ، بالكَثيرِ من المكتباتِ العَرَبيّةِ والعالَميّةِ الكُبرى.

وفي الفلسفةِ، كانت تشملُ علومَ الطَّبيعةِ، والرِّياضةِ، والميتافيزيقا (مَا وراءَ الطَّبيعة) والأخلاقِ والسِّياسةِ، ألَّفَ «الفارابي» أكثرَ كُتُبِه.وأكثرُ هذَا الكَثيرِ وصلَ إلى عَصرِنا، وطُبِعَ، وتُرجِمَ إلى عَديدٍ من اللُّغاتِ الحَيَّة.

كانَ الفارابي يكتُبُ بأُسلوبٍ دَقيقٍ مُركَّز، لا تكرارَ فيه ولا ترادُف، يُعطِي أَغْزَرَ المَعاني في جُمَلٍ مُختَصرة، ويذكرُ لكُلِّ فكرةٍ ما يقابِلُها، ولاَ يُطيلُ في شَرحِ المَعروفِ منَ الأفكارِ، ولا يتوقَّفُ إلاّ عِندَ المَوضُوعاتِ والقَضايا الكُبرى، فَلا يُضَيِّعُ وَقتَه

وَوقتَ العُلماءِ في مَوضوعاتٍ عاديةٍ، ويُعْنَى، أَشَدَّ العِنايةِ، بتَرتيبِ أفكارِه، في ضَوءِ منهجٍ شَديدِ الاهتمامِ، بالتَّحليلِ والتَّركيبِ، والتَّفريعِ والإجمالِ. ملقيًا الضَّوءَ في هذَا كلِّه على عَرضِ المَدارسِ الفلسفيّةِ وأسماءِ رُؤَسائِها، ومصادرِ تَسميّتِها.

رفع الحرَج

وكانت غايةُ الفارابي من كتبِه الفلسفيّةِ أمرَينِ هما: التَّوفيقُ فيما ما يبدُو من تناقُضاتٍ بين فلسفةِ أرسطُو من جهةٍ، وفلسفةِ أفلاطُون من جهةٍ أُخرى. ففلسفةُ أرسطُو تَنصَبُّ على الموجوداتِ المادّية، وفلسفةُ أفلاطُون تربطُ بينَ هذهِ المَوجوداتِ وما يُسمّى بعالَم الصُّورة، أو عالَم المِثال.والتَّوفيقُ بينَ قضايَا الفَلسَفةِ، وقَضايَا الدِّين الإسلاميّ.

ورفَعَ الفارابي بتوفيقِه هذا بَيْنَ الدِّينِ والفَلسَفةِ، الحَرَجَ عن عُلماءِ الفَلسفةِ والمنطقِ بينَ عُلماءِ العَصرِ من رِجالِ الدِّين. ولاءمت نزعةُ التَّوفيقِ هذهِ الفكرَ الإسلاميَّ في عَصرِه، فهي النَّزعةُ التي كانَتْ سائدةً بينَ المَذاهِبِ الإسلاميّةِ وأئِمَّتِها. ولذلكَ وجدَتْ محاولةُ الفارابي التَّوفيقِيّةُ نَجاحًا في زَمانِه، مثلَ النَّجاحِ الذي وَجدَه

المَذهبُ الأشعَريّ في عِلمِ الكَلامِ، لأنَّهُ وَفّقَ بنجاحٍ بينَ أصحابِ العَقلِ وأصحابِ النَّقلِ، ومثَّل النَّجاح الذي وَجدَه بعْدُ المَذهَبُ الشَّافعِيّ في الفقْهِ الإسلاميّ، لأنّه انتهجَ طَريقًا وَسَطًا بينَ المَذهبِ الحَنَفيِ، والمَذهَبِ المالكِيّ، والأوَّلُ يُعنَى في مَقولاتِ الفقه، بالعَقلِ والقِياسِ، والثّاني يُعنَى في مَقولاتِ الفِقه، بالحَديثِ والسُّنّة.

مُدن فاضلة

كانَ الفارابي يَرى أنّ المُدُنَ البَشَرِيّةَ نَوعانِ، مُدنٌ فَاضِلة، ومُدُن غَير فاضِلة.

والمدُنُ الفاضِلة غايَتُها تَحقيقُ السَّعادة، كغايةٍ قُصوى يَشتاقُها الإنسانُ. فهي أسمَى الخَيرات جَميعُها، ولاَ تَكونُ السّعادةُ إلاّ بمُمارسةِ الأعمالِ المَحمودةِ، عَن إرادةٍ وفَهمٍ مُتَّصلَين، لتنميةِ خِصالِ الخَيرِ المَوجودةِ فيه بالقُوّة، لِتَصيرَ مَلَكةً راسِخة فيه بالفِعلِ. فالمُمارسةُ تُوَلِّدُ العادةَ، خَيِّرة كانت هذه العادةُ أو شرّيرة.

والفَضيلةُ، في المُدنِ الفاضلةِ، هي وَسَط بينَ حدَّين: الإفراطُ والتَّفريطُ. والعملُ الصالحُ هو العَمَلُ المُتوسّط،

مثلما تتوسَّطُ الشَّجاعةُ ما بينَ التَّهوُّرِ والجُبنِ، والكَرَمُ بينَ البُخلِ والتَّفريط.

ومهمّةُ التّعليم والتّأدُّب، هي مهمّةُ رَئيسِ المَدينةِ الفَاضلة، أو مَن يُنيبُه عَنه، لتحقيقِ هذهِ الغايةِ. فرئيسُ المدينةِ الفاضلةِ هو واضعُ النَّواميس، القَوانينُ والشَّرائع. مُستعينًا بأصحابِ الفطرِ القَوِيّة، في الحُصولِ على السَّعادةِ، ليُرشد إليها من ليسَ له سَبيلٌ إلى تَعلُّمِها بنفسِه.

ورئيسُ المَدينة الفاضلة، يجبُ أن تَجتَمِعَ فيه خِصالٌ حَميدةٌ: قُوّةُ الشَّخصيّة، وقوّةُ البَدَنِ، وقوةُ العقلِ، وقوةُ النَّفسِ، وقوةُ الخُلق، ليصدُقَ ولا يكذب، ويحبُّ العَدلَ، ويَكرَهُ الظُّلمَ، وليشجُعَ ولا يَخاف، ويترفَّعَ بنفسِه الكَبيرة عن الصِّغارِ والدُّنيا منَ الأشياءِ والأُمورِ. فمهمةُ رئيسِ المَدينة الفاضلة خُلقية، مثلَما هي سياسيّة. وعليه أن يصبُغَ وزراءَه ومُساعديه، المنفّذينَ لأوامره، السّياسيّة، بمهامِّه الأخلاقيّة، فهُوَ وَهُمْ النَّموذَجُ الذي يقلّدُه أهلُ مدينَتِه، والمثالُ الذي يَحتَذُونَه

وإذا تَوزَّعَت هذه القُوى في رِجال، ولم تَجتَمِعْ في رجلٍ واحدٍ، فيجِبُ أن يكونُوا جميعًا، ومعًا، الرُّؤساءَ الأفاضل، بشرطِ أن

يكونُوا متلائمين ومُتَّفِقين، و إلا تعرَّضتِ المدنُ للهلاكِ ولم تعُدْ مدُنًا فَاضلةً.

مُدن غير فاضلة

والمدنُ غيرُ الفَاضلة، تتمثّلُ في مدُنٍ جاهلةٍ، لا يعرِفُ أهلُها السّعادةَ، ولا تخطُر لهمُ على بالٍ، فغايَتُهم هي سَلامةُ أبدانِهم، والحُصولُ على الثّروةِ، وعلى لَذّاتِ الحَواس. ومدائنِها هي مَدائِنُ الضّروريّاتِ، والخِسّة والشَّقْوة والتعصُّبِ باسمِ الكَرامةِ، والقهرِ للغيرِ، وتَكديسِ الثّروةِ، والحياةِ بالهَوَى بِلاَ وازعٍ، ولا قُدرةٍ على الكَفِّ للنَّفْسِ، أَو النَّهى عن المعصيةِ، والتَّمتُّعِ بلذّاتِ الحَواسِ.

وأسوأُ هذهِ المدائنِ حالاً هيَّ المدنُ الضَّالّة، التي يدّعي رَئيسُها أنه مُوحَى إليه، فلا يعملُ بالشّورَى، ولا يجمَعُ حولَه سِوَى بطانَةِ السّوء، فيصرِفَ أهلَ مُدنِه عن العقائدِ الصَّحيحة في الدُّنيا والآخرة، أخلاقًا وأعمالاً، وعن السَّعي إلى مَسرّاتِ العَقلِ والرُّوحِ.

في هذَا كلِّه كَتبَ «الفارابي» في بغداد، كتابيْه: «التّنبيه على سبيل السّعادة»، و«آراء أهل المدينة الفاضلة»، وكأنّه كانَ يقولُ

رأيَه في مدائِنِ عَصرِه ودُوَلِ أهلِ زَمانه، ويرثي تبدُّلَ أحوالِها من القُوّةِ إلى الضُّعف، ومن الكمالِ إلى النقْصِ، دونَ أن يواجِه بالقولِ المباشِرِ أهلَ السُّلطان، حيثُما كانُوا في مدائنِ الإسلامِ، وكأنّه كانَ يخاطِبُ أهلَ الصَّفْوةِ من المفكّرين، وأَصحابِ المُثُلِ السّاعين إلى الخيرِ والكَمالِ.

كِتاب المُوسيقى الكَبيـر

في بغدادَ كتب «الفارابي» نَحوًا من سبعين كِتابًا ورسالةً، فريدةَ المَوضُوعات، ودونَ تكرارٍ لِموضوعٍ، أو تَغييرٍ لِعنوانِ كِتاب، بينَ حينٍ وحِينٍ. ولم يشتهِر من بينِها، ممَّا وصلَ إلينا، سوَى واحد وعشرين مُصَنَّفًا، بين كتابٍ ورسالةٍ. وتقفُ في ذروَتِها كتُبه: «آراءُ أهلِ المدينةِ الفاضلة»، و«السّياساتُ المدنيّة»، و«الموسيقى الكَبير»، و«إحصاء العلوم»، ورسالتُه في «معاني العقل».

وقد ألّف الفارابي كتابَه «الموسيقى الكبير»، أو كتابَ «صناعة الموسيقى» وأهداه للوزير «أبي جعفر محمد ابن القاسم الكرخي» الذي أحبَّه روحًا وطِباعًا، وجاءَ إتمامه للكِتاب، وإهداؤه للوَزيرِ، بعدَ مَوتِه، وكان الكرْخي صاحبَ مناصِبَ عَديدة تقلّب

بينَها في رئاسَات الدّواوين، وانتهى به المطافُ إلى الوفاةِ، وهو في فقرٍ شديد، بمنزلِه في بغداد، وفي نفسِ العَام فارقَ الفارابي بغداد، وأهلَ بغداد.

في كتاب «الموسيقى الكَبير» كتب الفارابي مدخلاً إلى صناعةِ الموسيقى، وفصولاً في هذه الصّناعة، تحدَّث فيها عن أصولها، وآلاتِها المشهُورة، وأصنافِ الألحانِ. وكان الفارابي يعتبرُ علمَ الموسيقى جُزْءًا من علمِ التَّعاليمِ، ويعرّفُه بأنّه العلمُ الذي تُعرَف به صناعةُ الألحانِ.

وقد قسَّم هذا العلم إلى علمَيْن: علمُ الموسيقى النّظريِّ، وأفردَ له خَمسةَ أجزاءٍ، تحدَّثَ فيها عن أصولِ الصّناعةِ، وعلاقةِ هذهِ الأصولِ بأصنافِ الآلاتِ، وعن أصنافِ الإيقاعاتِ الطَّبيعيّة التي هيَّ أوزانُ النَّغمِ، وعن تأليفِ الجُملَةِ الموسيقيّة. وعن تَأليفِ الألحانِ الكَاملة.

وعلمُ الموسيقى العمليّة، وفيه تحدَّثَ الفارابي عن الإيقاعاتِ، وعن النَّقْرةِ مُضافةً إلى الإيقاعِ. وما تزالُ نسخُ المخطوطاتِ لهذَا الكِتاب مَوجودةً بمكتبات: ليدن، وميلانو، والأسكوريال، وبيروت. وقد طَبع هذا الكِتاب أَخيرًا في القَاهرة.

أوّلُ موسوعة علميّة

ولَعلَّ أهمَّ كتابٍ للفارابي، خرجَ بِه من كلّ حصادِ مؤلفاته من الكتبِ والرَّسائلِ، هو كتابه «إحصاء العلوم» الذي حقّقه وأصدَره بالقاهرةِ الدّكتورُ عثمان أمين. ففيه تَجَمَّعت كلّ معارفِ الفارابي المَوسوعيّة في شتَّى العلومِ، وجاءَ مؤلّفاتهِ بمثابةِ الدُّرّة في التّاج.

و«إحصاءُ العُلوم»، هو أوّلُ محاولةٍ مَوسوعيةِ علميّة، في تاريخِ الفكرِ الإسلاميّ، بل في تاريخِ الفكرِ البَشَريّ كلِّه، فقد أحصى فيه العُلومَ المَشهورةَ في زمانه علمًا علمًا، وبيَّنَ في كلّ منها ما يشتَملُ عليه من أجزاءٍ وتَفريعات، وجعلَه في خَمسةِ فُصولٍ، فَفصلٌ عن علمِ اللّسانِ وأجزائه، وفَصلٌ عن علمِ المَنطقِ وأجزائه، وفَصلٌ عَن عُلومِ التَّعاليم، وفَصلٌ عن العلمِ الطَّبيعيّ وأجزائه. والفَصلُ الأخير، كانَ عن العلمِ المَدَنيّ وأجزائِه، وعن علمِ الفقهِ، وعلمِ الكَلامِ.

وفي حَديثِه عن كلِّ علمٍ، قدَّمَ الفارابي فِكرةً واضِحَةً عنه، وعَن فوائدِه وغاياتِه ومزايَاه.

فعلمُ اللِّسان غايَتُه هِيَّ حِفظُ الألفاظِ الدَّالّة عندَ أُمّة مَا، والعلمُ بِمَا يَدُلُّ عليه شَيءٌ منها، ويتمثَّلُ هذَا العِلمُ في العلمِ بقوانينِ تلكَ الألفاظِ معجمًا ونَحوًا وصَرْفًا. وعلمُ المنطقِ غايتُه معرفة القَوانينِ التي تقوِّمُ العَقلَ، وعَلاقتُه وَثيقةٌ بعلومِ اللُّغَة، فَموضوعاتُه هِيَّ القَوانين لها. لمدلُولات الألفاظ، وللألفاظِ التي تَدلُّ على مَدلُولاتِها.

وعلمُ التَّعاليم يشملُ علومَ: العَدَدُ، والهَندَسةُ، والبَصريّات، والنُّجومُ، والموسيقى، والأثقالُ، والحيل (الميكانيكا).

والعلمُ الطَّبيعيّ يشملُ عُلومَ: السَّماعُ الطَّبيعيّ، والسَّماءُ والعالَمُ، والكَونُ والفَسادُ، والآثارُ العلويّة، والمعادِن، والنَّبات، والحَيوانُ، والنَّفس.

فِيم البَقاء في بَغداد؟

مكثَ الفارابي في بغداد عِشرينَ سنةً، وآنَ لهُ الأوان أن يفارِقَها فقدْ لَقِيَ صَديقَه «الكرخي» وجهَ ربِّه قبلَ عامٍ، وكانَ نفوذُ الأتراكِ قد انتهى من بغدادَ قبلَ ستِّ سنوات ليبدأَ عصرُ الأُمراءِ في بغدادَ نفسِها، مثلما بدأَ في أقاليمِ الدَّولةِ العَبّاسيّة الواسِعَة

الأرجاءِ. ففي حَلب والمَوْصِل كانَ الحَمدانيّون، وفي مصرَ كانَ الإخشيديّون، وفي تُونس، كان الفاطِميّون، وفي المغرب كانَ الأدارِسة. وفي العالمِ الإسلاميِّ كانَ ثَلاثةُ خُلفاء، أحدُهم كان في قُرطبة بالأندَلُسِ هو عَبدُ الرّحمن النّاصر، والثّاني في المهديّة بتُونس هو مؤسِّسُ الدّولة الفاطميّة، والثّالثُ في بغداد، وهو الخليفة المتّقي، الذي لم يتورّع «تُوزُون» القائِد عن قَتلِه.

فَفِيمَ البَقاءُ في بغداد، وآلُ بُوَيه سوفَ يتَقدّمُون، بعدَ بضعِ سَنَوات لا تَزيد، ليحكمُوا بَغداد، قادمين من بِلادِ الفُرس، وفِيمَ البَقاءُ في بغدادَ؟ والعَواصِمُ الثّقافيّة الإسلاميّة الأُخرَى في ظلالِ الأُمراءِ المنشقّين، أفضَلُ حالاً، اجتِماعًا وسياسةً، وثَقافةً وعُمرانًا، مما آلتْ إليه حالُ بغداد، وفيمَ البقاءُ في بغداد؟ وهو، في السَّبعينَ من عمره ما يزالُ قادِرًا على العَمَلِ، ناطورًا يحرسُ البسَاتينَ، وطالبَ علمٍ يقرأُ الكُتبَ، وعالِمًا قد تَعن لَهُ مرّةً أخرى الكتابةُ والتَّأليفُ؟!

واختارَ الفارابي أن يحُطَّ رِحالَه في حَلب، بديار الشّام.

لِقاء عَجيب

دَخَلَ الفارابي مدينةَ حَلب(في سورية الآن)، وكانَ يَعرِفُ أنَّ أَميرَها سَيفَ الدَّولة الحَمْدانيّ، يحبُّ العِلمَ والعُلماء، ويحيطُ نَفسَه بالشُّعراءِ والكُتّاب والفنّانينَ مع العُلماء، وما تَزالُ به بَقيّةٌ من رُؤساءِ المُدُنِ الفاضلة، وقَد كَفَى الدُّوَلَ المُنشقّةَ كلّها، والخِلافةَ في بغداد، عِبءَ الدِّفاعِ عن تُخُومِ الشّام، ضدَّ الدَّولةِ الرُّومانيّة البيزَنطيّة، التي سَيطَرَتْ عليها رُوحُ الغَلَبة والقَهر، ودَبَّ فيها الفَسادُ واختِلافُ الآراءِ.

وآثَرَ الفارابي، وهو عَلَم بيْنَ العُلماء، ألاّ يُقيمَ في حلب، دُونَ أن يَلتَقي بأمير حَلب سيفِ الدَّولة الحَمْدانيّ، حتّى لا يَظُنَّ ببعْدِه عنهُ الظُّنون، وحتّى يُغلق دُونَه أَبوابَ السّعايات والوِشَايات. وكان لقاؤهُ لِسيف الدّولة لقاءً فَريداً، لَمْ يَلْقَ الفارابي بمثْله أحداً من قبل، مِن أَهلِ السُّلطانِ، فلمْ يسعَ من قَبلُ للقاءِ أحدٍ من أَهلِ السُّلطان.

دَخلَ الفارابي قَصرَ سَيفِ الدّولةِ بِحلب، في زيِّه التُّركيّ المُعتاد، وبدا لمهابَتِه عالماً، فلمْ يعترِض طَريقَه أحَد، مُوقنين بأنَّهُ عالمٌ مِن العُلماءِ الذين يفِدُون أبداً على سَيفِ الدّولةِ، من سائرِ الأنحاءِ.

وجدَ «الفارابي» الأميرَ سَيفَ الدّولةِ جالسًا في الصّدارة، على أريكةٍ عاليَةٍ، في الإيوانِ، يُحيطُ به العُلماءُ على الجَانبَيْن. ومَشَى الفارابي نَحوَ الأميرِ ثابتَ الخَطْو، فدُهِشَ سَيفُ الدّولةِ ودعاه للجُلوسِ وهُوَ يَسيرُ على البُساطِ نَحوَه، فقالَ لهُ الفارابي، وهو ما يَزالُ يواصلُ سَيرَه:

ـ حَيثُ أَنَا أم حَيثُ أنْت؟

فصاحَ بِه سيفُ الدَّولة:

ـ حيثُ أَنت.

ولمْ يُبالِ الفارابي بِمَا سَمِعَ، وواصلَ خَطْوَه حَتّى وَصَلَ إلى سَيفِ الدَّولةِ في جلسَته. وهمَّ به الحُرّاسُ الرّابِضُونَ وراءَ الأستارِ، فأشارَ إليهم سَيفُ الدَّولة، فتوقَّفُوا. وبلغَ الفارابي أريكةَ سيفِ الدَّولة، فجلسَ عليها بجانبِه. وعندئذٍ ابتسَم سيفُ الدّولة، وقالَ لمَن حَولَه من العُلماءِ الذينَ علَت وُجوههم أماراتُ الاستِنكار:

ـ ما أظُنُّ هذا الشَّيخ إلا عالمًا، ولَقد أساءَ الأدَبَ مَع الأُمراء، وَلكُم أن تَختبِرُوا معَارفَه. فإذَا رَسَبَ في الامتِحانِ، ولسوْف أدفَعُ بِه إلى الحُرّاسِ ليقتُلوه.

وأشارَ سَيفُ الدَّولة إلى رَئيس الحُرّاسِ، فأقبلَ مُسرعًا وحدَّثَه سَيفُ الدّولة، بلسانٍ فارسيّ، يُخبرُه بقتلِ الرَّجُلِ. ودهش سَيفُ الدّولةِ، حينَ وَجدَ الشَّيخَ، يَقولُ بنفسِ اللِّسانِ لقائدِ الحَرَسِ:

– لكَ عِندَئذٍ أن تَقتُلَني في الحَال.

الامتحَان

وتوالَتْ أسئلَةُ العُلماءِ للفارابي في الفقْه، والحَديث، والتَّفسير، وعلِم الكلم، وعُلوم اللُّغة، وزادُوا فَدَخلُوا به في بِحَارِ المنطقِ والفلسفةِ والرِّياضيّات، ولم يتوقّفِ الفارابي عن جوابِ ما يسأَلُونَه عَنه، كان يُجيبُ بِيُسرٍ وبَساطةٍ وعُمْقٍ، ويَضربُ الشَّواهِدَ والأمثالَ، وراحَ العُلماءُ يسجّلُون إجاباتِه ويَجمَعونَها لَه، فيما بَعد، في كِتاب، تحتَ عُنوان: «رِسالةٌ في جوابِ مَسائل سُئِل عَنْها الفارابي».

آثَرَ الأميرُ سيف الدولة، أن يَنفردَ بالشَّيخِ المَجهُول الاسمِ إلى لحظَته، فأشارَ إلى الحَاضرين فانصرَفُوا، وخَلاَ المَجلِسُ، واستَبقى الأميرَ مَعَهُ ضَيفَه، وحَدَّثَه وعرَّفَه مَنْ هو، فَنَهَضَ الأميرُ وعانقَه، وقالَ لَه:

– هل لكَ أن تأكُلَ مَعي؟

وأبَى الفارابيُّ الطّعامَ والشّرابَ. فقالَ له الأميرُ:

- فهل تَسمعُ؟

فقالَ لَه الفارابِيّ:

- نَعم.

وأشارَ الأميرُ، فخرجَ العازِفُون والعازِفات، والمغنُّون والمغنِّيّات، من وَراءِ الأستارِ، وأخَذُوا يَعزِفون الألحانَ، ويُغنُّون الأُغْنيات، وكُلّما سَمِعَ الفارابي عَزفًا، دَعَا صاحِبَه إليه، وبيَّن لَه نواحِيَ النَّقصِ في عَزفِه. ودهِش سَيفُ الدّولة، وسَأَلَه:

- أتُحسِنُ المُوسيقى أيضًا أيّها الفَيلسوف؟

فأخرجَ الفارابي من جوفِ عَباءَتِه كيسًا من القُماشِ، به ألواحٌ ركَّبها، وأوتارٌ شدّها، وكانتْ آلةً موسيقيّة لاَ عَهدَ للعازِفين من قبل بِها، وقال الفارابي: إنَّها «آلة القانون»، وإنّها من وَضعه، وأخذَ يَعزِفُ عليها ألحانًا غَريبة، بعضُها أسالَ الدّمعَ من العُيون، وبعضُها جعَلَ الأرواحَ تُحلِّقُ في خفَّةٍ، وبعضُها جعَلَهم يبتَسِمون في سُرور.

وعادَ الأميرُ يخلُو بضيفِه. عرَض عليه مالاً فأبَى. وراتبًا شَهريًا فأبَى، وقالَ للأميرِ:

- ما جئتُ إليكَ إلاّ لأتّقيَ شُرورَ أهلِ الوِشايةِ والكَيدِ عندَك، وما كانَ لِي أن أدخُلَ بلدَ أميرِ فارِس، هو بقيّةٌ عِندِي من السَّلَفِ الأوّلِ، دُونَ أن أَسعَى إلى لِقائه، وأستَأذِنَه في المُقامَ ببَلَدِه، ما طابَتْ لي الإقامةُ وامتدَّ بي العُمْر. وقد وَجَدْتُ لنفسِي عمَلاً لا أوثِرُ عليه عملاً سِواه، ولا أحِبُّ أن أُرْزَقَ أنا وبغلَتي إلاّ من أجرِه.

وضَحِكَ الأميرُ في إعجابٍ بالشَّيخِ العالِم، وألجمتْه الدَّهشَةُ، حينَ قالَ لَه الفارابي: إنّه يَعمل ناطورًا، يحرسُ بُستانًا في غَوْطةٍ في غياطِ حَلَب.

فِي جامع عمرُو

في حَلَب، عاشَ أبو نصر الفارابي، عشرَ سنواتٍ، حارسًا في بُستان. وبينَ حينٍ وآخر، كانَ يَزورُ دمشق، ويلْقَى مَن بها من العلماءِ، ويُصَلّي في جامِعِها الأمَوِيّ. ثم يَعُودُ إلى حلَب.

وتاقَتْ نَفسُ الفارابي لرُؤيَةِ مصر، ولَم تَكُن مَدينةُ القاهرة قَد أُنشِئَت بَعد، كامتدادٍ لمدائنِ الفُسطاط، والقطائعِ، والعَسكر. وكانت مصرُ في حُكمِ الإخشيديّين المُنافسين أبدًا لسيفِ الدّولة في تَمَلُّكِ الشّام. ونزلَ الفارابي بالفُسطاط، وصلّى في جامعِ

عمرو، ولقيَ عُلماءَ مِصر في عاصِمةِ الإخشيد. وأقامَ ما حلاَ لَه المَقامُ، ثم عادَ إلى دمشق، فَحلَب، يَحيا نَهارَه في بُستانٍ هو حارسُه، ومع أصواتِ الطُّيورِ، وخَريرِ نَهرِ بَردَى، وظِلالِ الشَّمسِ وأَضوائِها بينَ الأشجارِ، وأريجِ الزُّهورِ والثِّمارِ، ويسهَرُ ليلَهُ إلى الفَجرِ، معَ الكُتبِ، يَقرأُ جَديدَها، ويُعيدُ قِراءةَ أثيرِها عندَه ويهذّب مؤلفاتِه التي كَتَبها في بَغداد.

الزوْرَة الأَخيرة

وجاءَ يَومٌ، وقَد قارَب أبو نصر من العمرِ ثمانينَ سنةً، دَعاه فيه الأميرُ سَيفُ الدّولة لزيارةِ دِمشق مَعَه، وحَمَلَه مَعَه على خَيرِ مَركَبٍ، بعيرٍ يرْقُد في هَوْدَجِه إن شاءَ، ويَجلسُ إن أَحَبَّ الجُلوسَ، فقد تَقَدَّمَت بِه السِّنُّ، ووهَن مِنه العَظم.

وفي دِمشق طافَ أبُو نصر مع الأميرِ سَيف الدّولة بأرجاءِ غَوْطتها التي تُحيطُ بِها من الجنوب مِثل هلالٍ أخضر. وجلسَا مَعًا، وأَحَسَّ أبو نصر بهُبوطِ القوى، فدعَا الأميرُ إليه بطبيبِه المُرافقِ، لكنَّ الطَّبيبَ إذ بلغَ الفارابي الممدَّدَ على حَشيشٍ أخضرٍ، وجدَ رُوحه قَد فاضَت إلى بارئِها.

الجسد النَّبيل

وحزن الأميرُ سيفُ الدّولة على صديقِهِ الشّيخ، بقدرِ ما سَعِدَ بصحبتِه، وإقامتِه في بِلادِهِ عشرَ سنوات، وأمرَ فحُملَ الجَسَدُ النَّبيلُ المسجّى، لشيخٍ عاشَ زاهِدًا وقانعًا، إلى الجامعِ الأمَوي. وصلّى عليه الأمير بنفسِهِ صلاةَ الوَداعِ.

وَوُرِيَ جَسَدُ الفارابي في ثَرَى دِمشق، وعادَ الأميرُ إلى عاصِمَتِهِ بِدُونِه، وزارَ البُستانَ الذي كانَ يَحيَا في بَيتٍ صَغيرٍ بِه، وصحبَ الحُراس بغلةَ أبِي نَصر، وضمّوها إلى حظائِرِ الأميرِ. وحملُوا كتبَه، فضمَّها قَيِّمُ مكتبةِ قصرِ الأمير، إلى كتبِ المكتَبةِ العَامِرة.

* * *

في سَنَةِ مائتَيْنِ وتِسْعٍ وخمْسينَ هجريّة، ثمانمائة واثنتين وسبعينَ ميلاديّة، كانَ مِيلادُ الفارابي. وفي سنة ثلاثمائة وتسعٍ وثلاثينَ هجريّة، تسعمائة وخمسينَ ميلاديّة، لَقِيَ الفارابي وَجْهَ رَبِّه.

وفي عامِ ألف وتسعمائةٍ واثنَيْن وسبعين ميلاديّة، أُقيم في بغداد مَهرجانٌ لإحياءِ ذكرَى الفارابي، وفَدَ إليه العلماءُ والفلاسفةُ من أرجاءِ العالَمِ الإسلاميّ، ومن أنحاءِ القارّاتِ

السّت، في كَوكَبِنا الأرضِيّ، وأُلقِيَت عَنه وعَن مُؤَلّفاته في علومِ الموسيقى، والفلسفةِ والطَّبيعيّات، والرِّياضِيّات، والسِّياسةِ، والاجتِماعِ، والبُحوثِ، والدِّراساتِ.

وفي مِصر، نُشرت بُحوثٌ تَذكاريّة عن الفَارابي، ومُؤَلّفات الفَارابي.

وحَيثُما كانتْ للثَّقافةِ وللفلسفةِ مواطِنُ وعلماءُ، كانتْ ذكرَى الفَارابي العَطِرة عَبرَ العُصورِ، والتي تركَتْ بَصماتِها على ثَقافةِ العَرَب، والغَرْب، وأنجبَتْ من بعدها، وبفَضلها فَيلَسوفَيْنِ عَظيمَيْن قدمتهُما للعالَمِ، هُما: ابنُ سينَا، وابنُ رُشد. وكانَ الفَارابي، هو معلّمهُما الأوّل بمُصنّفَاته، ورائِدَ أوّلِ مَوسوعَة علمِيّةٍ في الدُّنيا، ومُؤَلِّفَ أضخَمِ كِتابٍ في الموسيقى بالعُصورِ الوُسطَى، وصاحِبَ مَدينة فاضِلة، تَتَجاوَزُ مَدينةَ أفلاطُون الفاضِلة، بِقيم مُجتَمَعٍ عَرَبيّ مُسلمٍ

وطَوالَ عَصرِ النَّهضَةِ الأوروبيّة الحَديثة، دَرَجَ المُستَشرِقُون على إطلاقِ لَقَب: المعلّمُ الثّاني، على «أبي نصر محمد بن طرخان» الفارابي، الفارسِيّ الأصْل، التُّركِيّ المُوطن، العَرَبِيّ

الثّقافة والدِّين، وحيّا ذِكراه المُستَشرِق «دي فُو» لأنَّ لفكره وثبات كوثباتِ الفنّان، وَحَياه المستشرِق «ماسينيون»، لأنَّه كانَ أكثرَ فلاسفةِ الإسلامِ فَهمًا للفلسفةِ، وللعُلومِ القَديمة، وحياهُ العالِم «روجر بيكون» لأنَّ مؤلّفاته كانَت نبراسًا لحُكماءِ الشَّرقِ والغَربِ، وسِراجًا وهّاجًا يستضيئُون بنُورِه، ويَسيرُون على هُداه.

المطبعة الحديثة للفنون المطبعية
IMAG
Imprimerie Moderne des Arts Graphiques

الفارابى

أبو الفلسفة الإسلامية والمعلم الثانى بعد أرسطو. عاش فى القرن الميلادى العاشر، وجاب مدائن عصره فى وسط آسيا والعراق والشام، ومصر. وترك وراءه للدنيا أضخم كتاب فى الموسيقى، وأول موسوعة للعلوم، ووفق بين فلاسفة اليونان وبين الفلسفة والدين، ودعا إلى حياة سعيدة فى مدينة فاضلة. وعاش عمره حارسا للبساتين. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- ابن النفيس
2- ابن الهيثم
3- البيروني
4- جابر بن حيان
5- ابن البيطار
6- ابن بطوطة
7- ابن سينا
8- الفارابي
9- الخوارزمي
10- الإدريسي
11- الدميري
12- ابن رشد
13- ابن ماجد
14- القزويني
15- ابن يونس
16- الخازن
17- الجاحظ
18- ابن خلدون
19- الزهراوى
20- الأنطاكي
21- ابن العوام
22- الطوسي
23- الكاشي
24- الوزان
25- ابن الرزاز
26- تقي الدين
27- الرازي
28- الكندي
29- الخليل
30- ابن حمزة
31- الزرنوجي
32- يوحنا بن ماسوية
33- ياقوت الحموي
34- ثابت بن قرة
35- ابن ملكا
36- ابن الشاطر

423

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-272-6